الفصل الثالث عشر
"صدمة"

في غضون ربع ساعة من القيادة المتواصلة قد تعدّى بها هشام حدود السرعة القانونية، وصل إلى إحدى الشقق بعمارة مأجورة لدى بعض العائلات، وطرَقَ الباب بعنف حتى فَتحَ له أحدهم، منطلقًا بصوته:

- أهلًا يا فندم..

دلف هشام مسرعًا إلى نافذة إحدى الغرف وهو يتحدث باضطراب:

- ها يا سعيد حصل أي حاجة غريبة؟ أو أى حد غريب شفته في المكان؟

- لا يا فندم، مفيش غير ابن خالتها اللي جِه زارهم، ومفيش أى حد أثار شبهة حواليه بأي فعل في المنطقة.

كان هشام يرقب منزل جنة من خلف النافذة عبر منظار مثبّت بحامل متحرك الأذرع يستطيع من خلاله رصد الشارع بأكمله، ثم عاد بنظره إلى سعيد قائلًا:

- كمّلوا مراقبة مش عايز عينيكوا تغفل لحظة، والآنسة جنّة ممنوعة من الخروج وممنوع حد يزورها غير قرايبها من الدرجة الأولى، أظن مفهوم.

رد سعيد وفريقه: مفهوم يا فندم.

خرج هشام من الشقة، وأطلقَ زفيرًا كاد يخنقه، وما كانت سوى خطوات خطاها حتى كان بعمارة جنة، وصعد إلى شقتها بعدما كسبَ ودّ كلب الحراسة

في مدخلها، طرق الباب في انتظار مجيبه، وبعد ثوانٍ فتح له طارق تبدو على وجهه علامات القلق والانزعاج، وبعدما رحبَّ به باضطراب وأجلسه في الصالون أردف:

- خير يا سيادة الرائد؟ جنة بتقول إنك قولتلها ماتخرجش من البيت....

- اطّمّن يا بشمهندس، كله تحت السيطرة، بس..

- بس إيه؟! أرجوك قولّي وماتخبيش عليّا حاجة، دي بنتي.

أدخل هشام يده بجيبه وأخرجها بالأقصوصة ومدَّها إليه، تناولها طارق وعيناه تحمل من علامات الاستفهام، والتي تحوّلَت إلى علامات تعجب ما إن رأى محتوى الأقصوصة؛ فبادر هشام:

- الورقة دي لقيناها في بيت كارولين قبل ما تهرب منه، واللي في الورقة ده عنوان بيتكوا، وده معناه.. إن الآنسة جنة ممكن تبقى مستهدفة.

شهقَت والدة جنة وربتَت على صدرها فزعًا، وراحت تحضن ابنتها التي بدا الشحوب على وجهها، ذلك ما آلم هشام كثيرًا، ودَّ لو بإمكانه طمأنتها بطريقته الخاصة، لكنه سرعان ما نفضَ عن رأسه تلك الأفكار التى باتت تداهمه بين الحين والآخر؛ فحمحم وقال:

- مش عايزكوا تقلقوا، كل المطلوب منكم إن الآنسة جنّة ماتخرجش من البيت ولا تطلع بلكونات، وممنوع حد يزوركوا غير الأقارب من الدرجة الأولى، وممنوع أى حد من بتوع الدليفرى ييجي هنا.

هز طارق رأسه بعنف موافقًا، وقال:

- كل اللي حضرتك هتقوله هنعمله، بس أرجوك خلصونا من الموضوع ده في أقرب وقت، مش هنفضل في القلق ده كتير.. أرجوك.

أومأ هشام مواسيًا، ثم استأذن، وغادر بعدما اختلس نظرة إلى جنّة حملَت بها عيونهما الكثير من الكلام؛ فحين يُلجم اللسان وتتعثر الكلمات على الشفاه تتولى العيون الحديث بجدارة.

عاد هشام إلى منزله، ولم ينتبِه إلى اتصالات حنين المتكررة، وكان مثواه ما ألفيه بمنزله؛ فقد علت أصوات ضيوف بمنزله، وما أثار عصبيته وحنقه هو أن ضيوفهم لم يكونا سوى لارا ووالدتها اللتين ما إن ارتأى لهما هشام حتى أشاحتا بناظريهما بعيدًا عنه باشمئزاز وعجرفة.

ألقى عليهن السلام بلا اكتراث، ودلف إلى غرفته، لكن ما لبث أن لحقَت منيرة في أعقابه وأغلقت باب الغرفة خلفها، نهض عن سريره بعصبية قائلًا:

- منيرة، ضيوفك على عيني وعلى راسي، بس..

قذفَت منيرة بوجهه قنبلتها الموقوتة، وقد اتخذ أسلوبها مسارًا حازمًا لا يقبل الردع:

- هشام! أنا جبتهم هنا عشان حاجة واحدة.. حاجة واحدة بس؛ وهي إنك تلبس دبلة لارا تاني وتلبّسها دبلتها، غير كده قسمًا بالله لساني عمره ما هيخاطب لسانك تاني، وهسيب البيت ومافيش أي حاجة هتربطني بيك بعد كده.

لم تكن كلماتها الجلادة مجرد صدمة لهشام، بل إنها استطاعَت قذف الرعب على حصون قلبه لتتهشّم، وتصبح حطامًا، نعم هو الرائد هشام المتحلّي بقوة الذئاب ودهاء الثعالب، لكن قلبه كقلبِ مُهرٍ صغير يخشى الضّلَال عن أمه وسط الأدغال الموحشة؛ فتبتلعه ظلمتها وتفترسه وحوشها، كانت منيرة تعلم جيدًا نقطة ضعفه تجاهها وتُحسِن استغلالها، وكان ذلك جليًا في صمته، إلى أن قرر إطلاق سراح لسانه قائلًا باستعطاف مغلّف بعصبية:

- منيرة! مش هتعملي كده.

أبعدت يديه عنها بقسوة جاهدت لإتقانها قائلة:

- لا ده اللي هيحصل يا هشام، أنا هطلع دلوقتي أقعد معاهم وهستنى قرارك، يا إما ترجَّع دبلتك يا إما هاخد شنطتي وأمشي معاهم.

خرجت منيرة من الغرفة، وتركته يزفر زفيرًا شيطانيًا كاد يحرق به ما يلفحه، ما كان ينقصه سوى ذلك!

دلفت حنين تواسيه وجدته في حالة من انفلات الأعصاب لم ترَ أخاها بها من قبل، حتى صاح بها بعدما قذف بعلبة سجائرة ومفاتيحه عرض الحائط:

- عاجبِك اللي منيرة بتعمله ده؟

ربتت حنين على كتفه بجزع قائلة:

- مش عارفة أقولك إيه، لو قولتلك ماتسمعش كلامها الأمور هتتعقد أكتر، بص.. مفيش قدّامك غير تسمع كلامها دلوقتي وبعدها ابقى سيبها.

- هي لعبة يا حنين؟! أوف!

مرت تلك الليلة بكثير من الأحداث المرهقة، وانتهت بانصياع هشام لرغبة منيرة؛ فكان النصر لها بتلك المعركة المصيرية، واضطر هشام إلى ارتداء خاتم الخطبة من جديد، تلك الحلقة المعدنية التي يمقت ملمسها حول أصبعه وكأنها ألسنة من لهيب حارق.

وأخيرًا.. خنع هشام لرغبة النوم والهروب المؤقت من اضطرابات الواقع المرير مسارعًا في إغلاق عينيه وكأنها باتت أقصى طموحاته.

وحالما أوشك على الانخراط في عالم يمزج بين الخيال والواقع، وقد بدأت ترتخي أعضاء جسده المنهكة استعدادًا للرحيل في غياهب النوم حتى باغته هاتفه برنين رسالة جديدة؛ فانتفض متيقظًا يطلق زفيرًا كاد يلحقه بوابل من السباب، حتى رأى اسم صاحبة الرسالة على الشاشة الخارجية "جنة!"، فتح هاتفه مسرعًا، وضغط على رسالتها حتى تبيّنَت له، وجعل يقرأها "شكرًا يا سيادة الرائد على اهتمامك، وكمان شكرًا لثقتك فيّا".

أرسلت جنة تلك الرسالة بعد ساعات من التردّد الطويل، وأخذت تطرق بأطراف أناملها شاشة هاتفها، قلقة من الرد والذي توقعته سيكون فحواه لا شكر على واجب أو هذا عملي وما شابه ذلك، وحينما أصدر هاتفها رنينًا معلنًا وصول ردّه، انتفض قلبها يقرع على باب صدرها إلحاحًا في طلبه للقفز منه، فتحت رسالته بيد مرتجفة، وقرأت ما بها:

"لو حابّة تشكريني بجد، يبقى تخلّي بالك من نفسك وتعملي كل اللي طلبته منك".

اتّسعَت ابتسامتها وما عادت تسيطر عليها، حتى انطلقت أناملها تكتب "تمام يا فندم.. تصبح على خير"

شقَّت البسمة أخيرًا دربًا من النور على وجه هشام في خِضَمّ أحداث ذلك اليوم الباهت، وردّها لها "وانتِ من أهلي."

وما إن ضغط زر الإرسال حتى لاحظ خطأ لوحة المفاتيح، عضّ لسانه وكتبها مرة أخرى "أهله ."

ضحكت جنة، وتدثّرَت بغطائها تستدعي النوم، لكن في كل لحظة كان هشام يداهم ذاكرتها فيقشعر قلبها، وينتفِضُ معطيًا بذلك إشارة ترغمها على الضحك غير المبرر.. إنها السعادة التي حينما تطرق باب القلب تسلبك الإرادة والتحكم على انفعالاتك.

وما حدث لهشام لم يكن بالشيء الجيد بتاتًا! فقد هرب النوم الذي تتوّق إليه كثيرًا، ولم يعُد يستجيب ثانية إلى كل المغريات، أخذ هشام يتقلب بفراشه يتذكّر نظرات جنة التي تطلق سهامًا حانية تبعث دائمًا به شعورًا غريبًا لم يعتده من قبل، لكنه يسعده على أي حال، وتلك البراءة التي تغلّفها يتخلّلها شيء من الشراسة المفتعلة؛ فتثير مشاعره وتجذبه لمجادلتها أكثر فأكثر... ظل يفكّر حتى داهمه النعاس وغلبه؛ فذهب ليراها في أحلامه.

*****

وبعد مرور يومين من البحث الدؤوب والتحقيق المستمر لم يصل هشام إلى شيء جديد، سوى أن المستأجر للشقة التي كانت تقنطها كارولين هو شاب في نهاية العشرينات، وأوصافه لم تؤكد له شيئًا تجاه شكّه في سامر؛ فتلك الأوصاف التى ذكرها الخفير وصاحب الشقة لم تنطبق عليه البتة سوى عمره، أما عن منزل جنّة فلم تجرؤ قطّة على الاقتراب منه.

في تلك الأيام كان هشام يتذرّع الحجج للتحدث معها، والاطمئنان عليها؛ فيطول بينهما الحديث دون إدراك، أو استيعاب للوقت الذي يمر بهما، فهكذا تكون الأوقات السعيدة، تمر على عجلةٍ لتُمَنّينا بالمزيد منها، وتبعث اللهفة عليها في القلوب؛ لذا تكون غالية ولا تقدّر بثمن.

كان هشام ينسَى نفسه وعمله بأعبائه، ويتحرّر من كل ذلك في كلمات تلك الرسائل التي لا تنتهي سوى بنومهما، أو المكالمات التي يتذوق بها عذوبة صوتها ورقتها ومرحها، لم يكن راضيًا في حياته في مثل هذين اليومين، أما هي فذلك الاحساس الذي يرسل به قلبها المتلهف إلى سائر أوصالها بقشعريرة عالية يزيد من إحساسها بالسعادة المخيفة؛ فبداخلها تعرف كأي أنثى سبب تلك السعادة _وإن عمدت إنكارها_ لكن عدم وضوح مصير تلك السعادة المؤقتة يبعث الخوف بجوفها؛ فتحاول قمع مشاعرها وكبح لجامها بانشغالها بمذاكرتها.

في صباح اليوم الثالث، في أحد المكاتب بجهاز الأمن الوطني رن هاتف نقال؛ فرد صاحبه بعصبية:

- ألو.

- ألو، انتَ..

- انتِ اتجننتي؟ بتكلّميني وأنا في الشغل، قولتلك التليفون للطوارئ بس، غير كده أنا اللي أتّصل مش انتِ.

- وأنا لازم أخلّص المهمة اللي جيت عشانها وأخرج من مصر بأسرع ما يمكن، وعشان كده اتصلت أقولّك إني هتصرف بنفسي.

ثم أُغلق الخط؛ فأخذ يصيح:

- ألو.. ألو، الله يخرب بيتك هتودّينا في داهية.